نظرية الثورة المصرية

لم تصل الثورة المصرية بعد إلى شاطئ ختام تستقر عليه ، ولم تتحول إلى سلطة ، ولا صنعت اختياراتها الجديدة ، ولا تزال الثورة فى مخاض عنيف متصل، صحيح أنها أبدت حيوية هائلة ، وأزاحت رئيسين فى ثلاثين شهرا ، أزاحت مشهد الحكم الحصرى المباشر لجماعة مبارك ، كما أزاحت نسخته الثانية فى صورة الحكم الحصرى المباشر لجماعة الإخوان ، لكن الثورة لم تقم حكمها بعد، ولم تحل اختياراتها البديلة للثلاثية الملعونة : الولاء للأمريكيين ، حفظ أمن إسرائيل ، ورعاية مصالح رأسمالية المحاسيب .

وقد أجازف بتوقع حوادث تاريخ عاصفة قريبة ، فثورة الثلاثين شهرا لم تكمل سيرتها بعد ، وموجاتها المتلاحقة لا تكف عن الجريان ، ليس على الطريقة التى يتوقعها أو يحبها الإخوان بالطبع ، فتحرك الإخوان ليس ثورة ، وليس من النوع الذى تلتحق به موارد غضب اجتماعى ووطنى ، فالإخوان قوة يمينية بامتياز ، وجماعة ثورة مضادة بالتأكيد ، ونزاعها مع جماعة مبارك ـ المنتعشة الآن ـ ينتمى إلى الماضى لا إلى المستقبل ، فجماعة مبارك تشدنا إلى الخلف ، وجماعة الإخوان تشدنا إلى خلف خلف ، وبرغم صخب الجماعتين على سطح الحوادث ، فما من فارق موضوعى بينهما ، فجماعة الإخوان هى جماعة مبارك بلحية ، وجماعة مبارك هى جماعة الإخوان بدون اللحية ، وثنائية الجماعتين عنوان قامت الثورة عليه ، ومن خارجه ، وكسر هذه الثنائية اللعينة هو علامة نجاح الثورة المغدورة ، فانتظروا هذه العلامة، واعملوا للتعجيل بقدوم ساعتها .

كان الإخوان ـ زمن مبارك ـ أكبر تجمع خارج الحكم ، ولا نقول فى المعارضة ، ولم تكن معارضتهم ـ إياها ـ سببا فى قيام ثورة ، ولا دعوة إليها ،

وقامت الثورة لأسباب أوسع من مجرد مواجهة استبداد الحكم ، فقد كان الاستبداد السياسى مجرد عرض لمرض انحطاط تاريخى تردت إليه مصر ، وكان دور الإخوان المتضخم من علامات الانحطاط والخروج من سباق التاريخ ، ومن قلب المأساة ولدت الثورة ، وبطاقة غضب هائل تنوعت موارده ، وقد كان رهاننا ظاهرا على حتمية الثورة ، وعبر عشر سنوات خلت قبل موعدها الأول فى ٢٥ من يناير ٢٠١١ ، وفى طلقات ومقالات تحولت إلى كتب بعناوين (ضد الرئيس) ٢٠٠٥ و(الأيام الأخيرة) ٢٠٠٨ و(كارت أحمر للرئيس) ٢٠٠٩ و(الرئيس البديل) أوائل ٢٠١٠ ، لم نكن نرجم بالغيب ، ولا نضرب الرمل ، بل كنا ـ بالضبط ـ نقرأ كف مصر ، ودون خداع صور مما كان يجرى على ساحة السياسة المجدبة ، كان رهاننا أن فى مصر غضبًا يكفى لصنع ألف ثورة ، ولأسباب خمسة شكلت فيما بينها ما قد تصح تسميته نظرية الثورة ، ويؤدى بعضها إلى بعض فى متوالية هندسية ، أولها : أن النظام القائم يبدو مخيفا ، لكنه ضعيف فى الوقت نفسه ، فهو نظام "معلق" بلا قاعدة اجتماعية تسند ، وقد مات سياسيا بسبب اختياراته "المعلقة" الخادمة لأقلية الأقلية ، وبدا فى صورة النبى سليمان حين مات دون أن يلحظ أحد ، ولم يكتشف أحد موته إلا حين نخر النمل العصا ، وبعد الوضع "المعلق" تأتى ثانية أسباب ودواعى الثورة لا الإصلاح التدريجى ، فالنظام "المعلق" له طبع الجراد ، يأكل الأخضر واليابس ، ويجرف التربة الوطنية ، ويجرف الصناعة والزراعة والثقافة والسياسة ، ويجعل فرصته فى الإصلاح الذاتى شبه معدومة ، ولا يجعل له من سبيل سوى ثنائية النهب العام مع الكبت العام ، والحكم بالشهوات والنزوات العائلية ، واحتكار السلطة كأقرب طريق لاحتكار الموت ، وفى مقابل "طبع الجراد" ، كان "طبع الغضب" يأخذ المسار الآخر ، ويخلق البعد الثالث من أسباب ودواعى الثورة ، فلا يوجد مجتمع يكف عن الدوران ، والغضب الذى تكبحه على السطح ، يلجأ إلى مسارب العمق ، وقد جرى اختزان الغضب المصرى طويلا ، جرى اختزان الغضب تحت الجلد

وتحت حافة النطق ، وفى آبار غضب هائل متنوع الموارد ، غضب بانسداد السياسة، وغضب بتراكم المظالم الاجتماعية ، وغضب بدواعى المذلة الوطنية ، وإلى حد بدت معه مصر كأنها تعوم على آبار غضب بركانى ، وهنا ظهر البعد الرابع أو السبب الرابع فى صناعة الثورة ، فالغضب المطمور يكفى ويزيد لتلبية الاحتياج إلى ثورة ، وربما لا تحتاج الثورة إلى ما هو أكثر من كتلة حرجة ترفع الغطاء عن آبار الغضب ، وكان ذلك رهاننا فى نظرية "الكتلة الحرجة" ، ونظرية "المئة ألف" ، والتى بدت ظاهرة فيما كتبنا ودعونا إليه منذ عام ٢٠٠٥ بالذات ، وتوقعنا معه "سقوط مبارك فى ميدان التحرير" بالنص والحرف بجريدة "الكرامة" صباح ٤ مارس ٢٠٠٧ ، وحين أعادت الظاهرة تشكيل نفسها فى صورة حكم الإخوان ، توقعنا بالحرف والنص "سقوط الإخوان فى ميدان التحرير" بجريدة "صوت الأمة" فى أواسط أكتوبر٢٠١٢ ، وقبل أن تبدأ هبات ديسمبر ٢٠١٢ ، ويناير ٢٠١٣ ، وصولا إلى هبة ٣٠ يونيو الأسطورية التى أطاحت بحكم الإخوان ، وهو ما قد يلفت النظر إلى البعد الخامس فى نظرية الثورة المصرية المعاصرة ، وهو أن بقاء "الاختيارات المعلقة" ذاتها يعيد ملء خزانات وآبار الغضب ، ويفسر سر تجدد الموجات المتلاحقة للثورة ، وبفارق ملحوظ لا تخطئه العين ، وهو أن سابقة الخروج إلى الشارع تغرى الآخرين بالفعل نفسه ، فتوافر الكتلة الحرجة ـ كتلة المئة ألف ـ يرفع الغطاء عن آبار الغضب ، والنتيجة : أن تنزح الملايين من آبار بلا قرار ، وهو ما يفسر تحول "الطابع الألفى" الذى بدأت به موجة يناير إلى "الطابع المليونى" انذى انتهت إليه موجة يونيو ، وقد بدا كدراما تخلع القلب ، وأظهر المقدرة الهائلة للشعب المصرى على صناعة أكبر حشد ثورى فى التاريخ الإنسانى بإطلاق عصوره وثوراته جميعا.

هذه الأبعاد الخمسة فى نظرية الثورة المصرية تشرح وتفسر بعض ما جرى ويجرى، فيها دراما مذهلة بالطبع، وفيها مشاهد تخلع القلب، وفيها صورة

لشعب عظيم يصنع الثورات فى أوقات الفراغ، غير أن مايجرى بعد كل موجة ثورية فيه ما يثقل القلب، فالثورة المصرية فيها بعض من سيرة "إيزيس" فى الأسطورة المصرية القديمة، "ست" إله الشر قتل أخيه إله الخير "أوزوريس" زوج "إيزيس" وحبيبها، لتبدأ "إيزيس" رحلة معاناة طويلة، تجمع فيها أشلاء "أوزوريس" من الجهات والبرارى، وتصنع منها جسدا واحدا متحدا، تنفخ فيه روح الحياة، وتعود لتحمل منه، وتلد "حورس" رمزا لمصر الجديدة، القصة رمزية بالطبع، وفيها رمزية ما يجرى للثورة المصرية، فقد ولدت بلا قيادة مطابقة، ولدت بلا رأس، ودخلت فى مخاتلة الرؤوس، فالثورة تقوم ولا تحكم، تقوم بقوة الناس التلقائية الجامعة الجامحة، ثم يأوى الناس إلى سكن بيوتهم، وعلى أمل أن يأتى "حورس"، ثم تكون الفاجعة المتكررة، فالثورة تقوم لكنها لا تصل للسلطة، والذين يحكمون بعدها هم من "الأغيار" لو جازت استعارة المصطلح اليهودى، يحكم "الأغيار" من المجلس العسكرى، ثم يحكم "الأغيار" من جماعة الإخوان، ثم يحكم "الأغيار" فى الحكومة والرئاسة المؤقتة الحالية، ولاتكون النتيجة غير تكرار لعنة الثورة المضادة نفسها، فما يجرى هو خلع الرأس دون خلع النظام، والجماعات التى تتوالى على الحكم تخدم وتجدد النظام نفسه، وعلى طريقة المثل الشعبى القائل "كأنك يا أبوزيد ماغزيت"، وقد يبدو المثل الشعبى الموروث غير مطابق تماما لما يجرى، وإن قاربه، فأهم انجاز ملموس للثورة جرى فى الشارع لا فى السلطة، فى بلورة وعى شعبى يقظ وفائق الحساسية، ونافد الصبر – ربما – قياسا إلى صبر المصريين الذى كان لا ينفد، وقد كانت محنة حكم الإخوان نعمة ضرورية لخلق الوعى الجديد، وسبقها ما هو أهم فى إزاحة شخص مبارك الجاثم، كنت أقول – قبل الثورة – أن إزاحة مبارك لا تعنى تغييرًا فوريًا للنظام، بل تعنى شيئا بالغ الأهمية، وأقرب إلى "فك العنة"، وإطلاق خيال المصريين وأشواقهم إلى التغيير، وكنت دائما أضرب مثالا فولكلوريا لتقريب المعنى، وهو "العنة النفسية" التى تصيب عريسا فى ليلة الدخلة، وتجعله فى وضع العاجز

جنسيا بصورة موقوتة، فيتطوع أحدهم بالتفسير، ويقول أن العريس "مربوط"، ومعمول له عمل، ولا تفك "العنة النفسية" إلا بضبط العمل السحرى المشعوذ ورميه فى النار، وكنت – بالقياس إلى خرافات الفولكلور- أقول نفس الشيء عن مبارك، كنت أقول أن البلد "معمول له عمل"، وأن "العمل الأسود" هو حسنى مبارك شخصيا، وأن إزاحته تعنى "فك عنة" الخيال المصرى، فقد كان الرجل مثل طائر "الرخ" الأسود، أطبقت سدوله على البلاد ثلاثين سنة طويلة عريضة، حجب لون السماء فوقه، وحجب ما بعده، فلا تكاد ترى فرجة أمل أو لمحة خلاص، ولا حتى مقدرة على تخيلها عند عموم الناس، وقد أطلقت الثورة العنان لخيال المصريين، فكت أسرنا، وصارت الرغبة فى التغيير هى خبزنا وكفافنا.

عبد الحليم قنديل

الهرم فى ٨ من نوفمبر ٢٠١٣